إثبات أن القرآن كلام الله تعالى

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

({وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦]. {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥]، وقوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا} [الفتح: ١٥]، وقوله: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: ٢٧]، وقوله: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [النمل: ٧٦]).

(الشرح)

هذه الطائفة من الآيات تتعلق بأمر أخص من الطائفة السابقة؛ فإنها تتعلق بالقرآن، والقرآن نوع من كلام الله؛ فالله تعالى تكلم فيما مضى وفيما لم يزل؛ فقد تكلم بالتوراة، ثم تكلم بالزبور، ثم تكلم بالإنجيل، ثم تكلم بالقرآن؛ فهذا مبحث شريف في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن.

يعتقد أهل السنة والجماعة: أن القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل، فنزل به على قلب محمد، صلى الله عليه وسلم، وهو كلام الله حُروفه ومعانيه؛ لا المعاني دون الحُروف، ولا الحُروف دون المعاني.

قوله: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ}: أي: طلب جوارك، وهو المستأمن؛ فغير المُسلمين، أربعة أصناف:

الأول: الذميون: وهم المقيمون في دار الإسلام، لهم ذمة المسلمين، ويعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

الثاني: المعاهدون: الذين عقدوا مع أهل الإسلام عقداً مطلقاً أو مؤقتًا.

الثالث: المستأمنون: الذين يطلبون الأمان من أهل الإسلام.

الرابع: الحَربيون: المحادُّون لله ورسوله، المقاتلون لأهل الإسلام.

و{أَحَدٌ}: نكرة في سياق الشرط، فتدل على العُموم.

فإذ استجار بنا مُشرك، فالواجب علينا أن نُجيره ونحميه؛ فلا يتعرض لقتلٍ، ولا أذى، بل نُقيم عليه الحُجة الرسالية، فنطلب قارئًا يقرأ عليه القرآن؛ فنكون بذلك قد امتثلنا أمر الله تعالى بقوله: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}؛ فهذا المسموع الذي قرع سمعه هو كلام الله، بنص كتابه، وهو لا يُمكن أن يسمع كلام الله من الله مُباشرة، لا سبيل أن يسمع كلام الله إلا من قارئ يقرؤه عليه؛ فصدق حقًا أن هذا

المسموع هو كلام الله؛ فالصوت صوت القارئ، والكلام كلام البارئ، لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مُبتدئًا، لا إلى من قاله مُبلغًا ومؤديًا.

قوله: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}: يعني من يهود.

قوله: {يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ}: قد كانوا يسمعون ما أنزل الله تعالى فيما مضى، وسمعوا من نبينا صلى الله عليه وسلم بعض ما أُنزل إليه

قوله: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}: قال ابن الجوزي، رحمه الله: (وفي سماعهم لكلام الله قولان: أحدهما: أنهم قرؤوا التوراة فحرّفوها، هذا قول مجاهد والسدي في آخرين، فيكون سماعهم لكلام الله بتبليغ نبيهم، وتحريفهم: تغيير ما فيها. والثاني: أنهم التّسعون رجلا الذين اختارهم موسى[١]، فسمعوا كلام الله كفاحاً عند الجبل، ... هذا قول مقاتل، والأول أصح)[٢]، وكذا رجح ابن كثير، رحمه الله، فقد ساق رواية ابن إسحاق عن ابن عباس أنهم الذين اختارهم موسى، ثم قال: (وَقَالَ السُّدِّيُّ: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} قَالَ: هِيَ التَّوْرَاةُ، حَرَّفُوهَا. وَهَذَا الذي ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ أَعَمُّ مِمَّا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ إِسْحَاقَ، وَإِنْ كَانَ قَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ لِظَاهِرِ السِّيَاقِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَمَا سمعه الكليم موسى بن عِمْرَانَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التَّوْبَة: ٦] ، أَيْ: مبلّغًا إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعَوْهُ)[٣]، أي يُحرفونه تحريفًا لفظيًا، وهو قليل، أو معنويًا وهو الأكثر. وهذه إحدى سوءات يهود.

فهذا المسموع هو كلام الله حقًا وصدقًا، دون تأويل أو تكلف معان مجازية؛ فالله تعالى أعلم بما قال، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا. وقد بيّن ابن كثير، رحمه الله، أن وصفه بكلام الله لا يستلزم سماعه منه مباشرة، كسماع موسى. فصوت القارئ، وأداؤه البشري الخارج من الشفتين واللسان والحُنجرة مخلوق، والكلام كلام البارئ ليس بمخلوق.

قوله: {مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}: وهذا يدل على أن كلام الله يُتعقل، وليس فيه مجهولات وألفاظ جوفاء كما يدعي المُفوضة، بل هو محل للتعقل والفهم والتدبر، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩]، وقال: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف:

---

[١] الذي في كتاب الله أنهم سبعون لا تسعون!: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٥٥].

[٢] زاد المسير في علم التفسير: (١/ ٨٠).

[٣] تفسير ابن كثير: (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

٢]، وقال: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣]. فعُروبة القرآن سبب في تعقله وإدراك معانيه.

قوله: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ}: هؤلاء المُنافقون الذين خذلوا المؤمنين عام الحُديبية، وأرادوا أن يفتوا في أعضادهم، فلما جاءت غزوة خيبر أرادوا الخروج لأنه يُوافق هوى في نُفوسهم لمغانم يُريدون أن يأخذوها. لكن الله تعالى قد حكم فيما مضى بحرمانهم ومنعهم من الخروج، كما في قوله: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ} [الفتح: ١٥]. فسمى الله القرآن المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم "كلام الله".

قوله: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}: {كِتَابِ رَبِّكَ}: أي مكتوبه، وهو كلماته، لقوله إثرها: {لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}، فقد تكفل الله بحفظه، وهو القرآن. والآية ظاهرة جلية في إفادة هذا المعنى.

قوله: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}: ولولا أنه كلام الله لما كان هذا القرآن فاصلًا في الاختلافات السابقة. فإن بني إسرائيل، وهم اليهود والنصارى، قد وقع بينهم في دينهم خلاف عظيم. فكل ملة تشظت وتفرقت فرقًا كثيرة؛ كما قال نبينا، صلى الله عليه وسلم: (افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً)[١]، فأُهريقت بسببه الدماء، وتبادلوا بينهم أحكام التكفير والحِرمان والحجب، وغيرها من الاصطلاحات التي يتنابزون بها.

ومن ذلك: خِلافهم في "الكلمة"، ففي مستهل إنجيل يوحنا: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) (يو ١:١)؛ يزعمون أن عيسى، عليه السلام، هو الكلمة، وهو الله! ويجهدون أنفسهم في تقرير هذا المفهوم الغامض، ولا يخرجون بطائل! ثم يلجؤون إلى القول بأن ذلك من الأسرار الكهنوتية.

فجاء القرآن العظيم ليرفع هذا اللتباس الذي وقعوا فيه، ويبين معنى كون عيسى، عليه السلام، كلمته، أي: أنه مخلوق بكلمته (كن)، كما قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩] فهو مخلوق كآدم، عليهما السلام، بالكلمة، لا كما

---

[١] حديث الافتراق رواه بألفاظ مختلفة أحمد: رقم (١٢٤٧٩)، والترمذي: رقم (٢٦٤٠) وحسنه، وأبو داود، رقم (٤٥٩٧)، وابن ماجه: رقم (٣٩٩٢)، والمروزي في السنة: رقم (٥٩)، والحاكم: رقم (١٠، ٤٤٣)، وقال: هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح الحديث، وصححه الألباني في صحيح الجامع: رقم (٢٠٤٢).

يزعم النصارى أنه هو نفسه كلمة الله، وأنه جُزء من الله تجسد في يسوع. فقص هذا القرآن ما هم فيه مختلفون، كما أخبر تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: ١]. فالبينة: القرآن العظيم يبينه خاتم المرسلين. فما كان لليهود، وما كان للنصارى أن يخرجوا من هذا المأزق الذي علقوا فيه من الخلافات العريضة، إلا بوحي من الله يكون مُقنعًا وحاسمًا وفاصلًا للنزاع، فكان هذا القرآن: {يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}. فهذا وجه استشهاد المصنف بهذه الآية في هذا السياق، والله أعلم.

إثبات أن القرآن مُنَزَّل من الله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وقوله: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: ١٥٥]. {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: ٢١]. {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: ١٠١–١٠٣]).

(الشرح)

هذه الطائفة من الآيات متممة لما سبقها من الاستدلال على عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن:

قوله: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ}: المشار إليه هو القرآن، وهو معطوف على قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} [الأنعام: ٩١].

وكون القرآن موصوفٌ بالتنزيل يدل، من جهة، على صدوره من الله؛ فهو كلامه، ومن جهة أخرى يدل على علوه سبحانه في ذاته، كما له العُلو المُطلق في أسمائه وصفاته وقهره؛ فلما كان سبحانه وبحمده له عُلو الذات، كما تقدم تقريره، صار الصادر منه سبحانه من كلام ينزل نُزولًا من أعلى إلى أسفل؛ فالله تعالى له العُلو، والآدميين، بالنسبة إليه، في السُفل.

قوله: {مُبَارَكٌ}: أي كثير البركة، وبركة القرآن إن تُعد لا تُحصى، مُبارك في تلاوته، وفي حِفظه، وفي تدبره، وفي العمل والحُكم به، وفي الاستشفاء به، وفي كل شأنه. فالقرآن العظيم مُبارك لا حصر لبركاته، فالبركة مُحتفة به حتى في تنزيله.

قوله: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}: لو أن الله تعالى أنزل كلامه على جبل من الجبال الصلدة الصلبة لرأيت ذلك الجبل يتهدهد ويُصبح دكًا، لكن الله تعالى أنزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وأعطاه القدرة على تحمله.

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ: (أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ). قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا"[١]. وعَنْها، رضي الله عنها، أَنَّهَا قَالَتْ: " إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا " زاد الحاكم: وتلتْ قول الله عزّ وجلّ: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥])[٢].

فهذا الأثر الحسي المشاهد يدل على ثقل القرآن حال تنزله، ولولا إعانة الله وتقويته لنبيه، صلى الله عليه وسلم، ما استطاع تحمل نزوله؛ كما أن الجبل الأصم الأشم يخشع ويتصدع لو أنزل عليه، ثم يُسرى عنه، صلى الله عليه وسلم، فيقرأ ما أُوحي إليه، (فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ({لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧]. قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨] قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٩] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ. فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَرَأَهُ)[٣].

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٢)، ومسلم: رقم (٢٣٣٣).

[٢] أخرجه أحمد: رقم (٢٤٨٦٨)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح. والحاكم: رقم (٣٨٦٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[٣] أخرجه البخاري: رقم (٦)، ومسلم: رقم (٤٤٨).

قوله: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}: يُسمى هذا التبديل نسخًا، إذ النسخ معناه في اللغة: الإزالة، كما تقول العرب: نسخته الريح؛ يعني مسحته وعفّت على آثاره. أما في الاصطلاح، عند الأُصوليين، فهو: رفع حُكم نص مُتقدم بحُكم نص مُتأخر؛ فالنسخ يتعلق بالأحكام، ولا يُمكن أن يقع في الأخبار، لأن ذلك يقتضي تكذيب الخبر الأول. وحاشا أن يتطرق الكذب إلى كلام الله تعالى. وأما الأحكام، فما كان واجبًا يُمكن أن يكون مُستحبًا، وما كان مُحرمًا يُمكن أن يكون مُباحًا. وأمثلة هذا كثيرة جدًا في كتاب الله. وقد يُنسخ القرآن بالقرآن، وقد تُنسخ السنة بالسنة، وقد يُنسخ القرآن بالسنة والعكس، تفاصيله في كُتب الأُصوليين.

وقد شوش النسخ على المشركين في مكة، كما شوش على أهل الكتاب في المدينة، فاتخذوا منه ذريعة للطعن بالقرآن والنبي! فقال تعالى في سياق آيات تحويل القبلة: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: ١٠٦].

قوله: {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}: من الفرية، والفرية: أشد الكذب والبُهتان.

قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}: دل على أنه يُمكن أن يقع النسخ وأن الله تعالى ينسخ لعلم ولحكمة. فمن أنكر النسخ فقد أكذب الله تعالى، وأكذب نبيه صلى الله عليه وسلم، وأكذب القرآن.

قوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}: وهو جبريل، عليه السلام.

قوله: {مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}: "من" للابتداء، و "الباء" للتلبس، يعني مُتلبسًا بالحق، مصحوبًا بالحق، فلا يتطرق إليه الباطل، كما قال في الآية الأُخرى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١، ٤٢]: بمعنى أنه لا يُمكن أن يلتبس أو يُختلط بباطل.

قوله: {لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}: هذه من بركات القرآن، فإنه يُورث الثبات في القلب. تجد الإنسان مُرتبكًا خائفًا قلقًا، فما هو إلا أن يسمع آية أو بعض آية، فكأنما هي أوتاد تُدق في قلبه فيستقر! ثم فوق ذلك يحصل به: {هُدىً}: والهدى قسيم الضلالة، فيُجلي الله تعالى الحق بهذا القرآن. ثم فوق ذلك:

{وَبُشْرَى}: فينسم على القلب البشارة والأخبار السارة التي يتنعم بها واجدها.

قوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}: "قد" هنا للتحقيق، وليست للتقليل، بدليل اقترانها باللام. ولا شك أن الله يعلم. والقائلون هم المشركون، فقد زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى هذه العلوم والأخبار المُتعلقة بالأنبياء السابقين وأُممهم من نصراني في مكة، يُصغي إليه! فأبطل الله هذه الفرية ودحضها.

قوله: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}: فأنّى لذلك الأعجمي أن يأتي بهذا الكلام العربي المُبين، الفصيح الحكيم، الذي تخضع له الرِقاب، ويذعن له فُصحاء العرب وعُقلاؤهم! فهذا أبعد ما يكون.

والشاهد أن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المتتابعات في سورة النحل بيّن حقيقة القرآن ومصدره، وأنه مُنزل من عنده، وأبطل الدعاوى التي تزعم بشريته. وهذه الدعوى لم يزل الزنادقة من الملاحدة والمستشرقين في الأزمنة الأخيرة يجترونّها، ويزعمون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لفّق القرآن من مصادر يهودية ونصرانية، كما يقول ذلك "جب"، و"مرجليوث"، "وجولدزيهر" وغيرهم من المُستشرقين الحاقدين الحاسدين، منذ نحو مائة سنة، ويشيعون شبهاتهم بين المسلمين. ومهما حاولوا فإنهم لا يستطيعون، فالقرآن يعلو ولا يُعلى عليه، القرآن عزيز بذاته، مؤثر بذاته. ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يُعول عليه في دعوته وخطابه وبيانه، فيستعمل الجُملة القُرآنية، ويعتمد أُسلوب ومنهج القرآن في الموعظة. فالقرآن مكنز للمعاني والمواعظ. وقصص الذين اهتدوا واعتنقوا الإسلام لمجرد سماعهم القرآن أكثر من أن تُحصر.

فدلت هذه الآيات بمجموعها على ما سبق أن قررناه من أن القرآن كلام الله، وأنه مُنزل غير مخلوق. وهذه الجُملة هي الجُملة التي جابه بها أهل السنة المعتزلةَ حين زعموا أن القرآن مخلوق، لاعتقادهم بنفي الصفات، وأن الله لا تقوم به صفة ثُبوتية. فمن فروع هذا المعتقد الباطل: نفي الكلام، والقرآن من كلام الله، فتكون النتيجة: أن إضافته إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله وما أشبه، فزعموا أن القرآن مخلوق.

ولكن السلف عندهم من العلم والحِذق والفطنة ما يكشفون به هذه الشبهات البدعية، فقاموا في وجوههم، وردوا عليهم، وزيّفوا أقوالهم. ومن أعظم من قام في هذا لله قومة صادقة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل -رحمه الله-، في فترة عصيبة حرجة ألمت بالأُمة، حيث ساند المعتزلة في دعواهم ثلاثة من خلفاء بني العباس؛ المأمون والمُعتصم والواثق، وامتحنوا الفقهاء والمحدثين، وحملوهم على مقالة المعتزلة. فأبى إمام أهل السنة أن يوافقهم، وناظرهم وأفحمهم، وقال: يا أمير المؤمنين: إيتوني بشيء من كتاب الله أو سنة رسول الله! فينقطعون بين يديه، وهو يصب عليهم الأدلة صبًا من الكتاب والسنة على وصف القرآن بأنه كلام الله وأنه مُنزل، وهم لا يأتون إلا بمُجرد الشُبهات الكلامية. حتى ثبت الله تعالى به الأمة. قال الإمام على بن المديني -رحمه الله-: إن الله نصر هذا الدين بأبي بكر عام الردة، وبأحمد عام المحنة. فكان هذا الإمام عصمة للأُمة منعها من الانحراف، حتى فاء الناس إليه.